

أسس فهم القرآن الكريم عند الحداثيين

The Foundations of Understanding the Holy Quran at Mod¹ بن عطاء الله يوسف¹ جامعة الأمير عبد القادر (قسنطينة)، benatallahyoucef@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/05/20

تاريخ القبول: 2024/05/08

تاريخ الاستلام: 2024/05/05

ملخص:

إنّ فهم القرآن الكريم لا يكون سوى بسلوك قواعد الفهم وضوابطه ومنهجيته، ولو حاد أحد عن تلك الطريقة والمنهجية لضلّ الطريق وتخبّط في ظلمات الانحراف، ولم ينلّ من الفهم الصحيح شيئاً. ولذلك سعى علماء الشريعة إلى تقرير تلك القواعد والضوابط وبيانها منذ القرون الأولى إلى عصرنا الحاضر. ولم يكن ذلك من آرائهم المحضة، وإنما كانت مستوحاةً ومستنبطة من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وما تقتضيه اللغة العربية وقواعدها، وما فهمه من عايشوا التنزيل الحكيم من الصحابة رضي الله عنهم. هذا وقد ظهر في عصرنا الحاضر ما يسمّى بالقراءة المعاصرة التي لا تعبأ بتلك القواعد إلا قليلاً، وتدعو إلى فهم جديد للقرآن الكريم وفهم جديد للشريعة الإسلامية، ولعلّ من أبرز دعاة هذه القراءة: محمد أركون، ومحمد شحرور، ومحمد عابد الجابري وغيرهم.

وقد رأينا أن نسلط الضوء في هذه المداخلة على خلفية ومرجعية هذه القراءة وطريقة فهمها للقرآن الكريم. وإن كان هذا الأمر يحتاج إلى صفحات طويلة ولكن سنسلك سبيل الاختصار في العرض والنقد.

كلمات مفتاحية: الحداثة، القرآن الكريم، المناهج الحديثة، التأويل.

Abstract:

Understanding the Holy Quran is only about the conduct of the rules of understanding and its controls and methodology, even though one of them has stepped away from that method and methodology to misrepresent the road and overwhelm the injustices of perversion, and has not diminished the

correct understanding. Shariah scholars have therefore endeavoured to determine and articulate those rules and controls from the earliest centuries to our present time. This was not their purely opinions, but was inspired and derived from the texts of the Holy Koran and the prophetic Sunnah, the requirements of the Arabic language and its norms, and the understanding of those who lived the wise download of the companion to God's satisfaction. Today's so-called contemporary reading has emerged that these rules are filled with little, and calls for a new understanding of the Holy Quran and a new understanding of Islamic law. Perhaps one of the most prominent proponents of this reading is Mohammed Arkun, Mohammed Shahrur, Mohammed Abed al-Jabri and others.

We have seen that this intervention highlights the background, reference and understanding of this reading of the Holy Koran. If this requires long pages, we will take the shortcut in the presentation and criticism.

Keywords: Modernity, the Holy Quran, modern curricula, interpretation.

⁽¹⁾ المؤلف المرسل: بن عطاء الله يوسف ، benatallahyoucef@gmail.com

1. مقدمة:

أهل الحداثة أو الحداثيون، أو العصرانيون كلّها عبارات واحدة لمسمّى واحد، وهم جماعة من المفكرين يدعون إلى فهم حديث وجديد للشريعة الإسلامية، ونصوص الوحي، أو ما يسمونها بالقراءة المعاصرة وهي محاولة لتفسير نصوص الوحي بالاستعانة بالنظريات الغربية الحديثة، والتحرّر من القيود والقواعد التي سار عليها علماء الشريعة الإسلامية، أو ما يسمونه بالتفسير التراثي (عبد الولي بن عبد الواحد الشلفي، 2013، صفحة 19) (محمد بن زين العابدين رستم، 2011، صفحة 5) .

1. التشكيك في القرآن الكريم

أجمع المسلمون على أنّ القرآن الكريم كلام مقدّس، وهو كلام الله تعالى الذي أوحاه وأنزله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وقد دلّت على ذلك آيات كثيرة. قال تعالى: "أَلَمْ يَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ". سورة آل عمران: 3.1. وقال: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ". سورة البقرة: 186. وقال: "طه ما أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى". سورة طه: 2.1.

وأما الحدائون فقد تَمَرَّدوا على هذا المعنى وتناولت أقلامهم على كثير من المقدسات الشرعية، ومنها القرآن الكريم سواء بالتصريح تارة، أو بالتلميح واللف والدوران تارة أخرى وتحريف معانيه ومخالفة مقاصده.

فهذا نصر حامد أبو زيد يرى أنَّ القرآن الكريم نصٌّ تشكَّل من خلال الواقع والثقافة السائدة في عصر النبوة، لأنه لا يمكن فصل النص عن ذلك الواقع الاقتصادي والاجتماعي. فقال: "إنَّ النص في حقيقته وجوهره مُنتجٌ ثقافي. والمقصود بذلك أنَّه تشكَّل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما. وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقا عليها، فإنَّ الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكِّر من ثم إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص" (نصر حامد أبو زيد، صفحة 24).

وقال أيضا: "الواقع إذن هو الأصل ولا سبيل لإهداره، من الواقع تكوَّن النص، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن حركته بفاعلية البشر تتجدَّد دلالاته، فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا، وإهدار الواقع لحساب نصٍّ جامد ثابت المعنى والدلالة يحوِّل كليهما إلى أسطورة، يتحوَّل النصُّ إلى أسطورة عن طريق إهدار البعد الإنساني والتركيز على البعد الغيبي" (نصر حامد أبو زيد، 1994، صفحة 130).

فتناول مفهوم القرآن من الواقع المادي، وأنَّه ثمرته ومنه تشكَّل.

ويقول أركون: "نلاحظ أنَّ الخطاب القرآني قد صيغ (أو ركب) لغويا بصفته جهدا ذاتيا مبدولا لرفع نفسه إلى مستوى كلمة الله الموحى بها... نحن نقول اليوم بأنَّه كلام ذو سلطة مشابهة لسلطة العديد من الأقوال الأخرى السابقة التي شهدتها منطقة الشرق الأدنى... سوف نرى كيف أنَّ هذه البدهية التاريخية المدعَّمة من قبل التحليل الألسني والسيمائي للخطاب القرآني سوف تقودنا إلى صياغة المقترح التالي الاستكشافي (أي القابل للأخذ أو الرد): ما كان قد قُبِلَ وعِلِّمَ وقُبِّرَ وعِش عليه بصفته الوحي في السياقات

اليهودية والمسيحية والإسلامية ينبغي أن يُدرس ويقارب منهجيا بصفته تركيبة اجتماعية لغوية مدعّمة من قبل العصبية التاريخية المشتركة والإحساس بالانتماء إلى تاريخ النّجاة المشترك لدى الجميع. سوف نخضع هذا المقترح الاستكشافي لجميع أشكال التحريّات أو التمحيصات الممكنة. وهذا يعني أنّنا سوف نعلّق أو نعطل كلّ الأحكام اللاهوتية التي تقول بأنّ الخطاب القرآني يتجاوز التاريخ كلياً، إلى نكون قد وضّحنا كل المشاكل اللغوية، والسيميائية، والتاريخية، والإنثربولوجية التي أثارها القرآن كنص" (محمد أركون، صفحة 21).

فنص القرآن هو تركيبة اجتماعية لغوية تشكّلت من قبل العصبية التاريخية، والتصرفات البشرية لأغراض مختلفة، ولذلك يجب أن يخضع للتمحيص، والتحري، حتّى تزول الإشكالات التي أثارها القرآن كنص في نظره. وهو يرمي أيضاً إلى ما يرمي إليه كلام نصر أبو زيد من أنّ القرآن قد تشكّل من خلال الواقع، ولكن بصيغة مختلفة، وهي فكرة التيار العلماني التي تلقّفها عن المشككين من أهل الغرب. وإذا كان هذا التشكيك قد طال القرآن الكريم نفسه، فلا غرابة أن نجد لهم الانحرافات الخطيرة في فهمه، وتزييف معانيه، أو التشكيك في غيره من مصادر الشريعة الأخرى.

ويمكن الردّ على هذا الادّعاء والافتراء بما يلي (منى محمد بهاء الدين الشافعي، 1429، الصفحات 219-221):

1. لو كان القرآن قد تشكّل من خلال الواقع والثقافة السائدة في البيئة العربية خلال عهد النبوة لكان مُشابهاً لكلام تلك البيئة، بأن كان شعراً من أشعار العرب، أو نثراً كنثرهم، أو كان مشابهاً لكلام النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي نزل عليه القرآن وهو من بلغه، وهذا كلّهُ مُنعدم لمن له أدنى معرفة بالعربية وتراكيبها.

2. لو كان القرآن الكريم من صياغة الواقع، لوقف عند حدود ومعارف ذلك العصر، ولم يتجاوز ذلك إلى الماضي والمستقبل، فقد قص قصص الأمم السابقة، وصحّح الأخطاء المعرفية التي كانت سائدة في ذلك العصر.

3. تناولت عدد من الآيات بعض القضايا المهمة في عهد النبوة، ولم يكن نزولها أثناء تلك الأحداث ولا بعدها بقليل، بل كان بعد مدة زمنية طويلة، كما في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد انتظر النبي عليه الصّلاة والسّلام عام ونصف حتّى نزلت الوحي في هذا الشأن، وفي حادثة الإفك لم ينزل الوحي

رغم أهميتها إلاّ بعدد أربعين يوماً، كما تأخر أيضاً بعد سؤال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف.

فلو كان القرآن تشكّل من خلال الواقع لما كان هذا.

4. لو كان القرآن تشكّل من الواقع، فكيف به يغيّر هذا الواقع الذي تشكّل منه؟ بل بلغ سرعة في تغييره ونجاحه لم تعهده كتب البشر، فخرق تلك العادة، وخرج عن المعهود في سنن من التغيير بالكلام النافع، "وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلاب العالمي الذي تركه هذا الكتاب ما حدث ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوي بحيث يكون له من السلطان القاهر على النفوس والحكم النافذ على العواطف والميول ما يصد الناس عن نهجهم الأول في عقائدهم التي توارثوها وعبادتهم التي ألفوها وأخلاقهم التي نشؤوا عليها وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذي هدم تلك الموروثات فيهم وحارب تلك الأوضاع المألوفة لديهم. وهذا الأساس الذي لا بد منه تقصر عنه في العادة جميع الكتب التعليمية التي يؤلفها العلماء والمصلحون وتعجز عن إيجاده كافة القوانين البشرية التي يضعها القادة والمشرعون لأن قصارى هذه الكتب والقوانين إذا وفقت أن تشرح الحقائق وتبين الواجبات لا أن تحمل على الإيمان والإذعان وتدفع إلى العمل بوحى هذا الإيمان وإذا فرض أن يؤمن بها أصحاب الاستعداد السليم فيإيمان مجرد حينئذ من قوة الدفع ودفعه التحويل ولا سبيل في العادة إلى التأثير بها على الجماهير ونجاحها فيهم نجاحاً عاماً إلا بأمرين أحدهما تربية الأحداث وترويضهم عليها علماً وعملاً من عهد الطفولة والآخر قوة حاکمة تحمل الكبار على احترامها حملاً بالقوة والقهر ومع هذا وذاك فتربية الصغار على هذا الغرار هيئات أن تكون تربية استقلالية بل هي تقليدية تفقد الدليل والبرهان وكذلك إجبار الكبار هيئات أن يصل إلى موضع الإذعان والوجدان!.

لكن القرآن الكريم وحده وهو الذي نفخ الإيمان في الكبار والصغار نفخاً وبثه روحاً عاماً وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعاراً ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها ومقدساتها جملة وحملها على التحلي بهدية الكريم علماً وعملاً على حين أن الذي أتى بهذا القرآن رجل أُمي لا دولة له ولا سلطان ولا حكومة ولا جند ولا اضطهاد ولا إجبار إنما هو الاقتناع والرغبة والرضا والإذعان ... هذا الأساس الذي وضعه القرآن وحده هو سر نخضته

وإن شئت فقل هو نار ثورته بل هو نور هدايته والروح الساري لإحياء العالم بدعوته وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هو النفوس والمشاعر وملك القلوب والعقول وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم يخشون بأسه وصولته ويخافون تأثيره وعمله أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحرب الجائحة لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح بما لم يعهد له نظير في أية نفضة من النهضات!... هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذي نتحدث فيه أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن في تدبر وإمعان ونصفه حاذقا لأساليبه العربية ملما بظروفه وأسباب نزوله أما الذين لم يحدقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة فيكفهم أن يسألوا التاريخ عما حمل هذا الكتاب من قوة محولة غيرت صورة العالم ونقلت حدود الممالك وعن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاء أشبه بالقهر وما هو بالقهر وأفعل من السحر وما هو بالسحر سواء في ذلك أنصاره وأعدائه ومحالفوه ومخالفوه وما ذاك إلا لأنهم ذاقوا بسلامة فطرتهم العربية بلاغته ولمسوا بحاستهم البيانية إعجازه فوجد تياره الكهربائي موضعاً في نفوسهم لشرارة ناره أو لهطول غيثه وانبلاج أنواره!" (محمد عبد العظيم الزرقاني، 1996، الصفحات 294-296).

2. الاستغناء عن السنة النبوية في فهم القرآن الكريم.

لا يمكن للمشتغل بدراسة القرآن الكريم وتفسيره أن يستغني عن السنة النبوية؛ فهي التي حملت لنا أسباب النزول، وظروفه، والسنة هي كلام من نزل عليه القرآن الكريم، وكلفه رب العالمين بتبليغه وبيانه كما دلّ صريح القرآن. ولذلك اشترط جماهير المفسرين الرجوع إلى أقوال وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم لبيان مراد الله، بل هي أولى ما يُفسّر به كلام الله تعالى.

غير أنّ الحداثيين قد استغنوا بفهومهم عن هذا المعاني، وشكّكوا في ثبوت السنة النبوية، كحال محمد أركون الذي يرى أنّ أول استخدام لمصطلح السنة لم يكن سوى سنة 80 للهجرة، كما يرى أنّها وليدة وصناعة الدولتين الأموية والعباسية لترسيخ شرعية السلطة الإسلامية (محمد أركون، 1996، الصفحات 22-23)، وهو بهذا يشكك في السنة النبوية مطلقاً. وقد رأينا قبل قليل تشكيكه فيما هو أعظم وهو القرآن الكريم.

وجعلوا نصوصها هي محض اجتهادات إنسانية من النبي صلى الله عليه وسلم وليست وحيا، كما صرح به محمد شحرور (محمد شحرور، 2016، صفحة 42) وغيره. وتأول تأولا بعيدا للتصوص القرآنية التي تدل دلالة واضحة على حجيتها ووحيتها.

فيرى على سبيل المثال أنّ الضمير في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. سورة النجم: 03-04. يعود على القرآن الكريم، ولا يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك أنّ سورة النجم مكية، وكان المشركون يشككون في وحي القرآن، ويعتبرونه كذبا وسحرا... فردّ الله ذلك بهذه الآية وأثبت الوحي للقرآن الكريم (محمد شحرور، صفحة 545).

ولا شك أنّ هذا تأويل بعيد إن لم نقل تحريف للقرآن الكريم، لأنّ قوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾. سورة النجم: 02. توضّح أنّ المخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. سورة النساء: 65. فأقسم الله تعالى بنفسه "أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرا وباطنا ويسلمه تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة" (محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، 1995، صفحة 246). وفي هذا المعنى أيضا قال سبحانه وتعالى سورة التور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. سورة النور: 51. ولا يمكن أن يقال هذا فيمن لا يكون كلامه وحيا.

كما يرى (شحرور) أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مبلّغ للوحي، وأمّا البيان الذي أمر به الرسول فليس المقصود به التفصيل، وإنّما المقصود به الإعلان وعدم الإخفاء.

أي أنّ قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة النحل: 44. المراد منه التبليغ وليس التفسير، وهذا تأويل بعيد أيضا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة النحل: 64. فقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يدلّ دلالة قاطعة، ولا يترك مجالا للشك أنّ المعنى هو التوضيح والتفسير.

فالتَّبَيُّ صَلَّى الله عليه وسلم مَبَيَّنٌ و مَوْضَحٌ للقرآن، وليس المقصود بالبيان هو الإعلان كما ادعى المهندس شحور بدليل قول الله تعالى في الآية أيضا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾. سورة إبراهيم: 04. فقلوه: (بلسان قومه لبيّن لهم) أي؛ يوضّح لهم. إذ لو كان المعنى هو: الإعلان وعدم الإخفاء لما كان لهذه الجملة (بلسان قومه) معنى، ولا فائدة.

3. استخدام المناهج الحديثة في فهم القرآن الكريم وإخضاعه لسلطة العقل.

من أهمّ المشكلات عند أهل الحداثة هو طريقة التعامل مع النصّ القرآني وفهمه، وتنزيله؛ حيث وقع أصحاب هذه القراءات في فوضى منهجية لا نظير لها، وطغى عليها الانتقائية، والذاتية، والافتتان بالمناهج الغربية الحديثة، ومحاولة إسقاطها على النصّ القرآني حتى ولو كان ذلك لا يتوافق مع ذلك المنهج المستورد في حد ذاته، وفي هذا المطلب سنوضح قضية استخدام المناهج الغربي الحديثة في فهم النصّ القرآني، وفي إخضاع النصّ لسلطة العقل.

الفرع الأول/ استخدام المناهج الحديثة في فهم القرآن الكريم.

يدندن الحداثيون كثيرا على ضرورة استخدام المناهج الغربية في نقد النصّ الشرعي، تأثرا بمفكرتي الحضارة الغربية، الذين ابتكروا هذه المناهج ووظفوها نتيجة الاختلافات والتعارض بين الأناجيل المتعدد، بل الاختلاف والتعارض واقع في الإنجيل الواحد، ونتيجة تسلط الكنيسة على عقول الأوروبيين في العصور المظلمة وتحاييل رجال الدين عندهم باسم الدين لخدمة مصالحهم فأنت هذه المناهج لنقد النصّ الأدبي أو النصّ الديني عندهم.

ولذلك نجد محمد أركون شديد التأثير بهذه المناهج، ويرى بضرورة استخدامها في نقد النصّ القرآني. ويقول في ذلك: "سوف نرى كيف أنّ هذه البدهية التاريخية المدعّمة من قبل التحليل الألسني والسيميائي للخطاب القرآني سوف تقودنا إلى صياغة المقترح التالي الاستكشافي(أي القابل للأخذ أو الرد): ما كان قد قُبِلَ وعِلِّمَ وقُبِّرَ وعُشِيَ عليه بصفته الوحي في السياقات اليهودية والمسيحية والإسلامية ينبغي أن يُدرس ويقارب منهجيا بصفته تركيبة اجتماعية لغوية مدعّمة من قبل العصبية التاريخية المشتركة والإحساس بالانتماء إلى تاريخ النّجاة المشترك لدى الجميع. سوف نخضع هذا المقترح الاستكشافي لجميع أشكال

التحرّيات أو التمحيصات الممكنة. وهذا يعني أننا سوف نعلّق أو نعطّل كلّ الأحكام اللاهوتية التي تقول بأنّ الخطاب القرآني يتجاوز التاريخ كلياً، إلى نكون قد وضّحنا كل المشاكل اللغوية، والسيميائية، والتاريخية، والإنثربولوجية التي أثارها القرآن كنص" (محمد أركون، صفحة 21).

ويرى شحرور أنّ الأحكام تتغير بتغيّر النظام المعرفي، وأنّ القرآن يجب أن يُفهم فهما معاصرا على ضوء العلوم التي توصّل لها الفكر الإنساني مهما تعدّدت أنواع هذه العلوم. ولذلك وظّف في قراءته علوم اللسانيات الحديثة، ووظّف بعض المكتشفات والنظريات العلمية التجريبية (محمد شحرور، 2012، صفحة 44) (محمد شحرور، 2016، صفحة 48)

غير أنّ هذه المناهج لا يمكن أن تُوظّف في فهم القرآن الكريم الذي هو وحي من عند الله تعالى، للأسباب الآتية:

1. توصّلت الدراسات الأدبية الغربية الحديثة إلى نظرية تجعل القارئ هو محور الأساسي والمؤثّر في فهم النصّ وتجسيد معناه، وتطبيقه في فهم القرآن الكريم يعني جعل معنى القرآن هو المعنى الذي يفهمه القارئ بناءً على بيئته وظروفه والنظام المعرفي الذي يعيشه. وهذا يتعارض مع صريح القرآن الكريم، الذي تولى الله تعالى ببيانه فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. سورة القيامة: 19. ولم يجعل للقارئ بيانه من رأيه وهواه.

2. تعتمد القراءات الأدبية الغربية في بعض نظرياتها على فرضية موت المؤلف طلباً للموضوعية، وهذا لا يصلح وغير مقبول مع النصّ القرآني أو نصوص السنّة، فهي وحي من الله.

3. القراءة التفكيكية تعتمد على عدم وجود معنى معيّن للنصّ، بل يمكن تأويله إلى ما لا نهاية، ممّا يعني عدم استقرار المعنى، ومحمد شحرور من أنصار هذه الأطروحة، إذ لم يستثن في قراءاته القطعيّات وخلط فيها خلطاً عجيباً، ونشأت هذه القراءة في الأصل لمعالجة النصّ الديني وما يتعلّق به كما يقول (دريدا) ولم تنشأ لمعالجة نصّ الوحي.

4. مناهج العلوم الإنسانية الغربية ليست محلّ اتفاق في منشئها، ولم تسلم من إعادة النظر والبحث، وليست متجرّدة عن التيارات الفكرية الغربية المختلفة، كما أنّ هناك اختلافاً وتداخلاً في تطبيقها، ففي علم النفس نجد منهج التحليل النفسي والمنهج التجريبي والقياس، وفي علم التاريخ نجد المنهج التاريخي والإحصائي

والتجربي أيضا، وهذا يسبب مشكلة إقحام المناهج في غير محلّها وموضعها ممّا يُؤدّي إلى نتائج خاطئة أو بعيدة وغير دقيقة. وهذا لا يصلح مع النصّ القرآني (عبد الولي بن عبد الواحد الشلّفي، الصفحات 276-281).

5. استخدام المناهج التجريبية الطّبيعية في فهم النصّ القرآني . ما يرى شحور . غير ممكن لوجود الفارق الكبير بين مجال العلوم التجريبية ومجال العلوم الإنسانية، فالأول حسّي، والثاني معنوي.

6. إنّ ظهور هذه المناهج الغربية الحديثة في قراءة النصّ كانت لأسباب تتعلّق بالكنيسة حيث استأثرت بقراءة النصّ الديني، ونشرت الأساطير والخرافة عند معتنقيها في أوروبا، وحصل صراع ونزاع لسنين طويلة بين المذاهب النّصرانية، كلّ هذا دفع بالمفكرين الغربيين إلى ابتكار هذه المناهج لقراءة النصّ الديني عندهم، وهذا يعني عدم صلاحية تطبيق هذه المناهج على القرآن الكريم، لوضوح نصوصه، وصحّتها وعدم تحريفها، وبعدها عن الخرافة والأساطير التي لا يتقبّلها العقل السّليم.

الفرع الثّاني: إخضاع النصّ لسلطة العقل.

من سمات الحداثيين تقديس العقل وتحكيمه في فهم النصّ الشرعي وتأويله، دون أي قيد أو سلطة تحد من تحرره، أو تضع ضوابط لفهمه (علي زواري أحمد، 2021)، وتقديم العقل له جذوره تمتد إلى الفرق العقائدية القديمة كالمعتزلة الذين لهم تقديس مفرط للعقل، تجلّى ذلك في تقديمه على النقل عند التعارض، إلا أن الحداثيين المعاصرين وسعوا دائرة تحكيم العقل فشملت أمور الدين كلها سواء كانت في الجانب العقائدي أو التعبدي أو التشريعي، ولا يشترط عندهم تعارض المعقول مع المنقول حتى يستحدثوا فهما جديدا للنصوص، بل إن النصّ عندهم مفتوح قابل لإعادة فهمه حسب ما تقتضيه طبيعة الفكر الإنساني والعصر الذي هو فيه.

وقد نصّ شحور على أنّ كل ما جاء في الكتاب يمكن فهمه بالضرورة على نحو يقتضيه العقل، وأنّ الله رفع من مكانة العقل الإنساني، ولذلك يجب علينا أن نرفع نحن أيضا هذه المكانة ونحترمها (محمد شحور، الصفحات 44-45).

ولذلك قد أطلق العنان لعقله في تأويل النص القرآني، ولو خالف الصريح من الآيات، أو كان ذلك من المسلمات. كتفسير الجنة والنار بالتفسير المادي، وأنهما يقومان على أنقاض هذا الكون (محمد شحرور، صفحة 241)، وأنّ الأعمار غير ثابتة (محمد شحرور، صفحة 413)، ووصل به الأمر إلى حد تحريف المعنى الواضح المتبادر للذهن من أول وهلة. كما في تفسير: "أو نسائهن" قال: "نسائهن جمع نسيء لا جمع امرأة، أي المتأخر" (محمد شحرور، صفحة 609)، وهو خلاف القواعد الصرفية لصيغ الجمع. ووضع نصر أبو زيد مفهوما مبتكرا للنبوة، والقرآن الكريم؛ فيرى أنّهما من وحي الواقع وثمره من ثمراته، كما فسّر محمد عابد الجابري أيضا آية الميراث ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾. سورة النساء: 11. ففسرها بعقله أيضا، وادعى أنّ هذا الحكم كان لظروف وواقع معيّن كان منتشرا في البيئة العربية، والواقع هذا قد تغيّر الآن مما يستدعي فهما جديدا يقتضيه الواقع.

والإسلام لا يرفض استخدام العقل جملة وتفصيلا، وإنما جعل العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، وهو أمر خطير للأسباب الآتية:

. أن يترك لكل إنسان الحق في التأويل كيفما شاء يؤدي ذلك إلى فوضى التأويلات، وهذا هو الحاصل عند الحداثيين فهم غير متفقين فيما بينهم في فهم وتأويل الكثير من النصوص القرآنية. لم يقدم الحداثيون منهجا عقليا محددًا مطردًا يضبط عملية التعامل مع النص، بل إن القارئ لبحوثهم وكتبتهم يجد أن من أبرز سماتها: الإنتقائية وعدم الحياد وعدم الموضوعية.

ولذلك فلا يمكن للعقل أن يكون حكما على النص القرآني ومقدّما عليه لأمر أهمّها:

1. العقل البشري، محدود المجال، وقاصر عن إدراك بعض الأمور التي تخرج عن قدرته، لأنّه قد خلّق بإمكانات محدودة، ولذلك لا يستطيع معرفة حقائق الغيبات، ولا يستطيع الاجتهاد في حقائق القطعيات (عبد الولي بن عبد الواحد الشلّفي، 2013، صفحة 388). إذ للإنسان طاقة عقلية محدودة مثل ما له طاقة جسمية محدودة.

2. لو كان العقل مقدّما على النصّ لما أرسل الله تعالى الرّسل ولما أنزل الكتب لهداية النّاس وإرشادهم وتوجيههم، واكتفى بهداية بالعقل لهم فقط. ولم يحصل هذا لعلم الله عزّ وجل بقصور العقل البشري عن إدراك بعض الحقائق، ومعرفةها.

3. لا يمكن تقديم العقل في مورد النصّ الصّريح، لأنّ النصّ الصّريح وحي من عند الله تعالى، وليس للعقل سوى إبداع طرق وسبل الفهم.

4. مدح الله تعالى في كتابه الذين استسلموا لأمر الله وآياته، وآمنوا بها، ولم يخوضوا بعقولهم فيما لا يستطيعون إدراكه. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. سورة آل عمران: 07. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. سورة النساء: 65. فقيّد الإيمان بالاستسلام لقضاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعدم حرج النّفس بذلك.

وقال أيضا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سورة الإسراء: 85. فاختصّ نفسه بهذا الأمر، وبين أنّ هذا ليس من شؤون العقل البشري، ولا السؤال عنها، لأنّها تخرج عن مداركه وعلمه، لذلك قال بعدها: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

4. التّأويل.

من أهم ما اعتمده الحداثيون في فهمهم للنصّ القرآني هو التّأويل، ولكن ليس بالطريقة التي سلكها المفسرون والأصوليون وعلماء الشريعة عموما، وإنما بطريقتهم المنفلتة عن شروط التّأويل الصحيح، ولكي نوضّح ذلك ينبغي أن نذكر أهم الأسس التي اعتمدها في هذا الأمر:

1. الأصل هو التّأويل: فإذا كان الأصل عند الأصوليين والمفسرين هو الأخذ بظاهر النصّ، فإنّ الحداثيين يرون أن الأصل هو التّأويل، بل التّأويل ضرورة للنصّ حتّى ولو كان النصّ واضحا (حسن حنفي، صفحة 375).

2. لا براءة في القراءة: وتنطلق هذه النظرية من مبدأ أنّ كل تأويل أو قراءة لا بد أن تحمل وراءها بواعث إيديولوجية. ولذلك فلا يمكن أن تكون هناك حيادية في القراءة، بل هي خاضعة لثقافة القارئ ومعارفه وتوجهاته (أحمد إدريس الطعان، 1428، صفحة 424).

3. موت المؤلف وتأليه القارئ: ومضمون هذه الفكرة أنّ بموت المؤلف يكون النصّ ليس مرتبطاً بصاحبه، بل يكون متّصلاً بالقارئ فهو الذي لديه سلة تأويله وفهمه، والهدف من هذا هو تفكيك وتحرير النص من سلطة مؤلفه، وإحلال القارئ محله (قطب الريسوني، 1431، صفحة 265).

4. وهم القصديّة: ومعنى هذا أنّه لا داعي لمحاولة معرفة قصد المتكلّم صاحب النصّ، لأنّ بموته صار النصّ مستقلاً، ويبقى القارئ هو صاحب القول الفصل في ذلك النصّ (قطب الريسوني، 1431، صفحة 266).

5. لا نهائية للمعنى: إنّ موت المؤلف، وانتفاء قصده، والقول بسلطة القارئ يستلزم أن لا نهاية للمعنى، ولا معنى ثابت للنص، بل هو خاضع لصراع التأويلات ووجهات نظر كلّ قارئ (أحمد إدريس الطعان، 1428، صفحة 424) (عبد العزيز حمودة، 1998، صفحة 48).

6. التناص: ويقصدون بذلك أن كلّ نصّ قد تأثّر بنصوص أخرى ولها بصماتها التي أسهمت في تشكيله، ويسقطون هذا على القرآن الكريم (تعالى كلام الله عن ذلك)، فيزعمون أنّه تأثّر بنصوص سابقة له كالتوراة والإنجيل والشعر (نصر حامد أبو زيد، الصفحات 38-39).

7. الرمزية: وتعني جعل اللغة نظاماً من الرموز والعلامات والإشارات بحيث تفسح مجالاً واسعاً للتأويل والقراءة المبدعة (قطب الريسوني، صفحة 269).

هذه بعض الأسس المهمة في التأويل الغربي، تلّفها أهل الحداثة من العرب وحاولوا إسقاطها على القرآن الكريم والسنة النبوية، والتراث الإسلامي، وفي هذا خلل يمكن أن نجمله في النقاط الآتية:

1. أنّ هذه الأسس غير مسلمّة بها كموت المؤلف، واستقلال النصّ عنه، وإطلاق العنان للتأويل، ذلك أنّ مؤلف النصّ لا يمكن أن ينفكّ عن مقولاته، ونصّه فهو صاحبه، ومُنشؤه، فلا بد من البحث عن مقصده حتّى نكون أقرب إلى التفسير الصحيح.

2. أنّ هذه الأسس قد نشأت في العالم الغربي نتيجة لظروف خاصة أبرزها تسلّط الكنيسة في القرون الوسطى على عقول أصحابها واستعبادهم، وتحايل أربابها عليهم، من أخذ أموالهم بالباطل، ودفعهم إلى الإيمان بالخرافات التي لا يقبلها من له أدنى مسكة من التفكير الصحيح. إضافة إلى أثر الأساطير والخرافات التي احتفلت بها نصوص التّوراة والإنجيل المحرّفة، كلّ لك أجبر المفكرين الغربيين على التعامل مع هذه النّصوص بطريقة تكون أقرب إلى المنهجية العلمية في نظرهم فأسسوا هذه النظريات لإيجاد قراءات مناسبة لتلك النّصوص.

3. إنّ تطبيق هذه الأسس على النصوص القرآنية كما يريد الحداثيون نوع من العبث والمحاولات اليائسة، ولا يقبلها عقل ولا منطق، ذلك لوجود خلاف جوهري بين القرآن الكريم والنصوص الأخرى. فأما الخلاف بينه وبين نصوص التوراة والإنجيل فيكمن في أنّ القرآن الكريم معصوم من التّحريف والتّغيير والتّبديل؛ فهيّا الله له من الأسباب ما لم تنهيا لغيره من الكتب فتناقلته الأجيال بالإسناد المتواتر المتّصل حفظا وفهما وتعظيما وصيانة. والإعجاز ظاهر في لغته، ممّا يدلّ على أنّ بعيد عن نسج ولغة البشر، بخلاف نصوص التوراة والإنجيل المحرّفة المفتقرة إلى إسناد واحد متّصل إلى موسى وعيسى عليهما السلام، والملثية بالأساطير والحكايات الواضحة البطلان، والتي يتنزه عنها كلام الخالق سبحانه وتعالى.

وأما الفرق بينه وبين النصوص البشرية، فيكمن أيضا في كون القرآن معصوم ومعجز، ومحدد الغايات والأهداف ومتمّز، ومتفوّق زمانيا على الكلام البشري الذي من سماته أنّه غير معصوم ولا معجز وأهدافه مترددة، وظرفية تاريخيا (قطب الريسوني، صفحة 405).

4. من شروط التّأويل عند أهل الشريعة هو أن يكون النصّ قابلا للتأويل، وتشهد له دلالة السياق، والقرائن من الأدلة المنفصلة عنه من نصوص الكتاب أو السنة أو الإجماع، وانتفاؤه من المخالفة للأصول الشرعية والشّدوذ (قطب الريسوني، الصفحات 54-55)، وهذه الشروط كلّها مهمة ومنعدمة في التّأويل الحداثي، ممّا جعل فهم مدعاة للغربة والتّعجب.

5. لقد عجزت هذه المناهج الغربية في التّأويل عن التطبيق العملي في واقع مؤلفات أصحابها، بل ظلت نظريات مجردة على كثرة ما ألّفه الحداثيون من كتابات، وفي مقابل ذلك نرى التّطبيق العملي في واقع

كتب التفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه لمفهوم التأويل المنضبط المتوافق مع المنهجية الرصينة والعقل والتفكير الصحيح، مما يجعلنا نطمئن لمنهج علماء الشريعة ونشكّ في النهج الحداثي الغربي (محمد أحمد محمود شلي، 2020، صفحة 158).

5. خاتمة: نخلص في نهاية هذا البحث إلى ما يلي:

1. تناول أهل الحداثة أصول الشريعة وفروعها بعيداً عن جميع القواعد والضوابط التي سطرها علماء الإسلام عبر القرون المتعاقبة، ومن ذلك فهم القرآن الكريم؛ فيرون بضرورة تفسيره بطريقة مناسبة للعصر في زعمهم.
2. يلاحظ على أهل الحداثة شدة الجراءة على الشريعة وأصولها بشكل لا حدود له، وقد طال ذلك حتى القرآن الكريم، وغيره من المصادر الأخرى.
3. فهم القرآن الكريم عند الحداثيين لا يستند إلى السنة النبوية، لأنّها محلّ شكٍّ وريب عندهم في ثبوتها وطريقة نقلها.
4. من سمات أهل الحداثة هو فهم الشريعة على ضوء المناهج الغربية الحديثة، وإخضاع النص الشرعي إلى هيمنة وسلطة العقل.
5. التأويل الغربي يعتمد على بعض الأسس منها أنّ التأويل هو الأصل وموت المؤلف، وتأليه القارئ، وعدم براءة القراءة، وهي أسس لا يمكن تطبيقها على النصوص القرآنية، ولا على السنة النبوية، أو التراث الإسلامي على تنوع مجالاته، لأنّ تلك الأسس قد نشأت في البيئة الغربية نتيجة لظروف وملابسات تحتم على المفكرين الغربيين تأسيس مناهج للتعامل مع النصوص عندهم، وهذا ممّا لا يصلح في التعامل مع القرآن والتراث العربي الإسلامي. كما أنّ التأويل عند علماء الشريعة يقوم على أسس علمية متينة أهمّها: قابلية النص للتأويل، وعدم إهمال السياق وهذا ممّا يفتقر إليه التأويل الغربي.

6. قائمة المراجع:

القرآن الكريم

الحكّني الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، 1995 م 1415 هـ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت

- الشافعي، منى محمد بهاء الدين، صالح، هاشم، 1429هـ، التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، دار اليسر، القاهرة .
- شحرور، محمد، 2016م ، دليل القراءة المعاصرة للتّزليل الحكيم المنهج والمصطلحات ، دار السّاقى، بيروت.
- شحرور، محمد، 2012م ، السنة الرسولية والسنة النبوية، دار الساقى، بيروت .
- زوارى أحمد، علي، 2021م ، ضوابط تأويل النص القرآني في ظل منطلقات وأبعاد القراءات الحداثيّة، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي.
- أحمد محمود شلي، محمد، 2020م ، ظاهر القرآن بين جمهور المفسّرين وأصحاب التّأويل الغربي، جامعة الأزهر.
- الطعان، أحمد إدريس، 1428هـ، العلمانيون والقرآن، دار ابن حزم، الرياض.
- أركون ، محمد، 1996م، الفكر الإسلامي قراءة علمية، دار الإنماء القومي، بيروت.
- بن عبد الواحد الشّلفي، عبد الولي، 2013م ،م القراءات المعاصرة والفقّه الإسلامي، مركز نماء، بيروت.
- أركون، محمد، 2005م ،القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، بيروت .
- شحرور ،محمد، الكتاب والقرآن ، دار الأهالي، دمشق .
- حمودة، عبد العزيز ، 1998م ، المرايا المحدبة. دار عالم المعرفة، الكويت .
- أبو زيد، نصر حامد، 2014م، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء .
- حنفي، حسن ، من العقيدة إلى الثورة، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم ، 1996م، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر بيروت.
- الريسوني، قطب، 1431هـ ، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب الأقصى .
- رستم، محمد بن زين العابدين، 2011 ، نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي، جامعة شعيب الدكالي.
- حامد أبو زيد، نصر، 1994م، نقد الخطاب الديني، مطبعة سيناء، القاهرة.